مقدمة الكتاب

الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والانقياد لأمره ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]

وأصل العبادة محبة الله بل إفراده بالمحبة وأن يكون الحب كله لله فلا يحب معه سواه وإنما يُحَبُّ لأجله وفيه كما يُحَبُّ أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه فمحبتنا لهم من تمام محبته وإذا كانت محبة الله هي حقيقة عبوديته وسرها فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلَماً عليها وشاهداً لمن ادعاها فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعونى يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران : ٣١]

فجعل الله تعالى اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله وانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم فيستحيل إذن ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله ." [1]

وهكذا شاءت حكمة الله أن يكون حب الرسول ﷺ والتأسي به نتيجة لحب الله تعالى واتباع دينه ، ودين الله ليس هو الكتب المقدسة فحسب إنما أيضاً تطبيق الرسل العملي ، فليست مهمة الرسل هي تلاوة ما أرسلهم الله تعالى به من كتب إنما أيضاً أن يكونوا النماذج العليا في الامتثال بما جاءوا به والتطبيق العملي الأمثل لما أرسلوا به ؛ لذا جعلهم الله تعالى قدوة حسنة لمن كان يرجو رضا ربه والفوز بالجنة يقول

([1]) ابن القيم " التفسير القيم " ج ١ ص ٨٦ بتصرف .

تعالى : " ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]

وكان رسول الله ﷺ لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه ، ولا ينهاهم عن شيء إلا كان أبعدهم عنه فأخذ المسلمون عنه القدوة قولاً وعملاً .

لقد اهتمَّ المسلمون بالقرآن الكريم فحفظوه ، ودونوه امتثالاً لأمر النبي ﷺ ، ولم يشغلهم ذلك عن الاهتمام بسنة النبي ﷺ ؛ فكلا الهديين : الكتاب والسنة وحي من الله يقول تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:٣،٤]

ويقول النبي ﷺ : " أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ " [صحيح أبي داود وأحمد]

وإذا كان القرآن الكريم كله قد دوِّن في حياة النبي وبأمره ، وجمع في مصحف في عهد أبي بكر الصديق ، وروجع ونسخ ووزِّع على الأقطار الإسلامية في عهد عثمان بن عفان وتمَّ ما وعد الله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فإن تدوين السنة النبوية كان على مراحل متتابعة .

والسنة النبوية تشتمل على : الحديث النبوي ، والسيرة النبوية . والحديث النبوي كان أسبق في التدوين من السيرة النبوية ؛ إذ بدأ تدوين الحديث النبوي بصورة فردية في حياة النبي ﷺ ، وبإذن منه ، وكان النبي ﷺ قد نهى عند كتابة أحاديثه الشريفة خوفاً من اختلاطها بالقرآن الكريم وقال : " لا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ "
[صحيح مسلم]

وعن أبي سعيد قال : " اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللهِ أَنْ يَأْذَنَ لِي أَنْ أَكْتُبَ الحَدِيثَ فَأَبَى أَنْ يَأْذَنَ لِي " [صحيح الإسناد]

ولكن لمَّا اطمأن النبي ﷺ على قدرة بعض الصحابة على التفرقة بين القرآن الكريم ، والحديث الشريف أَذِنَ لهم بكتابة الحديث .

فعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ : " لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيَّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا مِنِّي إلا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو ، فَإِنَّهُ كَتَبَ وَلَمْ أَكْتُبْ " [صحيح ابن حبان]

وقال العلماء إن النهي عن كتابة الحديث خاصٌّ وقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره ، والإذن في غير ذلك ، وقيل : إن النهي خاص بكتابة الحديث مع القرآن في شيء واحد ، والإذن في تفريقهما ، وقيل : إن النهي مُتقدِّم ، والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس .

المهم أن بعض الصحابة كان يكتب الحديث على عهد رسول الله ﷺ ومنهم عبد الله بن عمرو الذي سمى صحيفته التي كتبها عن رسول الله ﷺ " الصادقة " وكانت عند علي بن أبي طالب صحيفة فيها أحكام الدية وفكاك الأسير ، كما ثبت أن النبي ﷺ كتب لبعض أمرائه وعمَّاله كتبًا حددَّ لهم فيها الأنصبة ومقادير الزكاة والجزية والديات ، إلى غير ذلك من القضايا المتعددة التي تدل على وقوع كتابة الحديث في عهده ﷺ .

وتوفي رسول الله ﷺ ولم تدون السنة تدويناً كاملاً كما دُوِّن القرآن ، ثم جاء عهد الخلفاء الراشدين ، فلم يدونوا السنة النبوية في كتب كراهة أن يتخذها الناس مصاحف يضاهون بها صحف القرآن ، وأحجموا عن كتابة السنة وتدوينها مدة خلافتهم ، ولم يكن هذا الإحجام تضييعاً للسنة فقد كان الناس لا يزالون بخير ، ولا تزال ملكاتهم قوية وحوافظهم قادرة على حفظ السنن وأدائها أداءً أميناً ، وقد تتابع الخلفاء على سنة عدم تدوين السنة ، فلم يعرف عنهم أنهم دونوا السنن أو أمروا الناس بذلك.

وهكذا انقضى عصر الصحابة ولم يُدَوَّن من السنة إلا القليل ، حتى جاء الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز فأمر بجمع الحديث النبوي لدواع اقتضت ذلك ، بعد حفظ الأمة لكتاب ربها ، وأمنها عليه أن يشتبه بغيره من السنن .

أما السيرة النبوية فلم يتم تدوينها على عهد النبي ﷺ ولا الخلفاء الراشدين ، ولم تجمع على عهد عمر بن عبد العزيز كما جمع الحديث النبوي ودوِّن إنما تأخَّر ذلك، وأقدم ما وصل إلينا من كتب السيرة كانت " سيرة بن هشام " التي هذَّب ابن هشام فيها سيرة ابن إسحاق [1] ثم توالت السير بعد ذلك .

([1]) يعتبر ابن إسحاق (محمد بن اسحاق بن يسار بن خيار المدني ٨٥ – ١٥١هـ) أول مؤرخ عربي كتب سيرة النبي ﷺ وأطلق تسمية "سيرة رسول الله" على كتابه. وقضى ابن إسحاق معظم حياته في المدينة وبدأ بجمع الروايات المختلفة من مختلف المصادر الشفهية التي كانت متوفرة آنذاك ولم يكن اهتمامه =

obeikandl.com

والحقيقة إن هذه السير ليس كل ما جاء فيها صحيحاً إنما فيها الضعيف بل والموضع أيضاً حتى سيرة ابن هشام لا تستثنى من ذلك " يسرف في الخطأ من يكتب في سيرة رسول الله وهو يعتقد أن كل ما جاء في سيرة ابن هشام صحيح ، ويجعلها مرجعه الأول والأخير . إن كتب المغازي والسير تشتمل على الروايات الضعيفة والموضوعة ، ولكنك تجد لكل رواية إسناد ، والواجب على الباحث أن يحقق الأسانيد ويختار الصحيح منها . " [١]

وواجب العلماء والباحثين في السيرة النبوية : تحقيق وقائع السيرة ، واستخلاص الدروس والعبر منها ، والاجتهاد في التمسك بما في السيرة من هدى ودعوة الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة وبكل وسيلة ممكنة .

وهناك مئات المؤلفات التي كتبت في السيرة قديماً وحديثاً ، ذاع بعضها ولم يذع البعض الآخر ، وما ذاع منها يشتمل على كتب صحيحة مُحَقَّقة نافعة ، وكتب تخلط الصحيح بالموضوع والحق بالباطل والهدى بالهوى بحسن نية أو بسوء طوية .

وفي العصر الحديث ومع بداية القرن العشرين تصدَّى للكتابة في السيرة النبوية كُتَّاب ذوو مشارب مختلفة ، ومذاهب فكرية متباينة مختلفة ، وثقافات متعددة ، وذاعت هذه الكتب وأقبل على قراءتها كثير من الناس ، وتأثَّروا بما جاء فيها ، ومن أشهر هؤلاء الكتاب : طه حسين ، والعقاد ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمد فريد وجدي ، رشيد رضا ، وغيرهم .

ولما كانت الكتب التي اعتمد عليها هؤلاء الكتاب فيها الصحيح والضعيف والموضع كما سبق أن ذكرنا فقد تفاوتت حظوظ هؤلاء الكتاب في الاعتماد على

= الرئيسي منصبّاً على تدقيق صحة الروايات وإنما كان غرضه جمع كل ما يمكن جمعه من معلومات عن الرسول. وفي عام ١١٥ هـ، الموافق ٧٣٣ م، بدأ بالتنقل من المدينة إلى الإسكندرية ثم إلى الكوفة والحيرة ليستقر في بغداد حيث وفر له الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور كل الدعم الممكن لأن يكتب عن تاريخ الرسول محمد . ولقد استند على سيرة ابن إسحاق كتاب السيرة الذين أتوا بعده مثل ابن هشام والطبري بالرغم من تحفظهم على بعض الروايات، علماً بإن ابن إسحاق نفسه ذكر في مقدمة كتابه أن "الله وحده عليم أي الروايات صحيحة."

([1]) محمد سرور بن نايف زين العابدين " دراسات في السيرة النبوية " دار الأرقم ط ٢ ص ١٠٧

obeikandi.com

الروايات الصحيحة ، واستنباط الدروس والعبر المفيدة المناسبة للزمان والمكان وأحوال الناس ، ولقد قام بعض العلماء والباحثين بالرد على هؤلاء الكتَّاب ونقدوا أعمالهم إجمالاً ، ولكن لم يقم أي من هؤلاء الباحثين ، فيما نعلم ، بضبط وتخريج الروايات التي وردت في هذه الكتب والتعليق على آراء أصحابها تفصيلاً ، وحاولنا نحن القيام بهذا الدور ، قدر علمنا وجهدنا ، وبدأنا بأشهر كتب هؤلاء ، فيما نعتقد ، فبدأنا بكتاب " عبقرية محمد " للعقاد ، وها نحن نُثَنِّي بكتاب " على هامش السيرة " لطه حسين ، وإن وفقنا الله تعالى نكمل باقي كتب السيرة .

والمنهج الذي اتبعناه في هذا الكتاب ، وما سبقه هو ضبط وتخريج كل الأحاديث التي لها علاقة بالنبي ﷺ وصحابته الكرام ، ومناقشة آراء الكاتب الدينية ، ثم نختم الكتاب بدراسة في اتجاهات طه حسين الدينية نناقش فيها المُلابَسَات التي كتب المؤلف فيها الكتاب وأثَّرت فيه ، والمنهج الذي اتبعه الكاتب ومدى مناسبته لدراسة السيرة النبوية ، ومدى التزام الكاتب به ، ومناقشة الآراء التي ذكرها الكُتَّاب في الكِتَاب وصاحبه ، والمُناخ الثقافي والديني السائدين عند تأليف الكاتب كتابه ، وأشهر كتب السيرة التي صدرت في نفس العقد ، واتجاهات أصحابها .

محمد يونس هاشم

٢٠١٥/١٠/٦

***

obeikandl.com